بالعربي

سميرة رجب

الثقافة السياسية والتطور الديمقراطي / ٢

توضح المؤشرات الميدانية إن القيم الديمقراطية لا تمثل مكوناً رئيسياً في بنية الثقافة السياسية العربية، بل على العكس، إذ تشيع في صفوف الأغلبية العربية قيم السلبية والعزوف عن المشاركة، والشعور بعدم القدرة على التأثير في مجرى الأحداث والتطورات، وضعف روح المبادرة. إضافة إلى ذلك هناك منظومة من القيم السلبية السائدة في هذه المجتمعات تتمثل بعبادة السلطة والشك فيها والتحايل على قراراتها والاستهانة بالمال العام والإستهانة بقيمة الفرد ذاته في نمو الوطن، إضافة إلى السلطوية والولاءات الضيقة والمحسوبية. ومن هذا المنطلق يمكن القول إن القيم الديمقراطية المتمثلة في الثقافة السياسية الديمقراطية لا تعد محدداً لصياغة أنماط العلاقات والتفاعلات داخل مؤسسات المجتمعات العربية (الأسرة، المدرسة، الجامعة، الجمعية، الاتحاد، النقابة)، بل إن هذه المؤسسات ساهمت - وتساهم - بأوجه مختلفة في إعادة إنتاج القيم التسلطية في شكل من أشكال الثقافة السياسية الخاصة بهذه المجتمعات... كما يمكن القول إن الثقافة السياسية الديمقراطية لا تمثل أساساً لصياغة العلاقات داخل الأحزاب والتيارات السياسية والفكرية الموجودة على الساحة السياسية العربية من ناحية ، ولا العلاقات فيما بين تلك الأحزاب والتيارات من ناحية أخرى، حيث تنتشر فيما بينها نزعات التخندق السياسي والفكري، وتجاهل أسس وأخلاقيات الحوار السياسي، وهو الأمر الذي ساهم ضمن عوامل أخرى في خلق محاور استقطاب مختلفة داخل المجتمع ، من فترة زمنية إلى أخرى ، يدور حول ثنائيات عديدة مثل: القومية والأممية، العروبة والإسلام، الدين والسياسة، الدينية والعلمانية، الطائفية والوطنية، الاشتراكية والرأسمالية... الخ.

وللبحث في الأسباب التي عملت لفترات زمنية طويلة على عدم بروز قيم الديمقراطية في الثقافة السياسية العربية وإضفاء الطابع التسلطي على تلك الثقافة يجب دراسة العوامل التالية:

أولا: الظروف التاريخية، المتمثلة في التراكم التاريخي لتقاليد مركزية السلطة والاستبداد السياسي من قبل الأنظمة التي تعاقبت على الحكم في المنطقة العربية حتى الوقت الراهن، وذلك باستثناء فترات محدودة تعرضت تلك السلطة فيها للضعف والتدهور في بعض المراحل التاريخية. إن استمرارية هذه التقاليد جعلت من الدولة المركزية ذات السلطة القوية أحد الثوابت الرئيسية في المجتمع العربي، ومن ثم أحد العناصر المحورية في الثقافة السياسية العربية التي تنتقل عبر الأجيال.

ثانياً: الظروف الاجتماعية - الثقافية، التي لا يمكن دراستها بمعزل عن الظروف التاريخية، وهي الظروف التي فرضت سيادة الطابع التسلطي الأبوي على عملية التنشئة السياسية والاجتماعية العربية. فعمليات التربية والتنشئة المتواصلة التي يتعرض الفرد لها عبر مختلف مراحل حياته، والتي يقوم بها العديد من المؤسسات الاجتماعية والسياسية كالأسرة والمدرسة والجامعة والحزب والنقابة وأجهزة الإعلام، تقوم على أسس تسلطية أبوية ، تكرس لدى الفرد منذ سنواته الأولى قيم الطاعة والامتثال والخضوع وتلقي التوجيهات من أعلى والتسليم بها دون حوار أو مناقشة أو نقد.

ثالثاً: الظروف السياسية - المؤسسية ، المتمثلة في حرص النظم الحاكمة، على تكريس مركزية السلطة ورفض المشاركة السياسية وتداول السلطة. ولذلك غابت قضية الديمقراطية، ولم يتم العمل على ظهور ثقافة سياسية ديمقراطية أو نظام ديمقراطي حقيقي...

وهكذا تم خلق أجيال عربية تملك من الثقافة السياسية ما تسمح بها الأنظمة الحاكمة وسياساتها وقراراتها دون أن يكون لتلك الأجيال أي دور يذكر في صنع تلك السياسات والقرارات... وتدريجياً أصبحت التعبئة السياسية بديلاً عن الثقافة السياسية على مستوى الأنظمة الحاكمة كما على مستوى التنظيمات والتيارات السياسية والفكرية .

وعلى هذا الأساس فإنه لا يمكن إنجاز تحول ديمقراطي حقيقي على الصعيد السياسي العربي دون تعميق الديمقراطية على صعيد المجتمع بحيث تصبح نمطاً عاماً للحياة يشمل مختلف أشكال المؤسسات والعلاقات السياسية والاجتماعية في المجتمع . وتعد هذه العملية أحد المتطلبات الاجتماعية الرئيسية لتأسيس نظام سياسي ديمقراطي، إلا أن إنجازها يرتبط بشروط واعتبارات عديدة، على الأحزاب والجمعيات السياسية ومنظمات المجتمع المدني العربية، مراجعتها وتفعيلها بمنهجية مدروسة .

sameera@binrajab.com